«مذكرات مكتئب»

أنا «أحمد»

وأخيرًا.. قررتُ أن أكتُب ما بداخلي. رغم أن تلك الحياة حتى الآن لم تنتشلني من تلك الحفرة التي تدعى الحُزن.

أكتب وأنا حياتي مازالت تزداد حُزنًا وكآبة. وكأنها الحياة لا تجد غيري لتُحزنه، وكأنما أنا فقط من يستحق حُزن هذا العالم.

اليوم هو أول يوم في العام الجديد. حسنًا الكُل سعيد وفرِح، وأنا هنا جالسٌ في تلك الغرفة التي لا أعتبرها سوى سجنًا لي. أجلس على الأرض في إحدى زوايا الغرفة، أحتضن مذكرتي وأنا أكتُب فيها، وكأنني أخاف أن يأخذها أحدٌ مني مثلما أُخِذ مني الكثير.

مرّت أعوام على وجودي في هذه الغرفة. بل بالأخص في هذا المشفى. عفوًا ما تسمّونه مشفى المجانين.

سـأعترف اليـوم باعتراف لم أرغب بقوله إطلاقًـا. منذ مجيئي إلى هنا وأنا لم أتناول دواءً قط.

كنـتُ دائمًا ما أخدع الممرضـات بأنّني تناولتها، وما أنا إلا أُخبئها في علبة صغيرة تحت ذلك السرير. لم أرغب يومًا بأن أتعافى، فضلّت كثيرًا أن أبقى هنا في تلك الغرفة بعيدًا عن كل شيء.

أنـا مريضٌ بالاكتئاب. تلك الغيمة السـوداء التـي ترافقني دائمًا مهما حاولـت الهروب إلى الغيـوم النقية. أذكُر أن عند دخولي للمشـفى كانت حالتي صعبة للغاية، أدى الاكتئاب بي إلى العصبية وما هو قد يؤذي العالم المحيط بي. حتى أنهم قاموا بحرماني من الخروج إلى حديقة المشفى ورفضو حتى الزيارات. ولكن حتى ذلك لم يهمّني، لأنه حتى لم يكُن هناك زوّار.

قبـل دخولي للمشـفى كنت أمُر بمشـاكل كثيرة في المنـزل والعمل، حتـى أنني وجدت نفسي قد وصلت لشـقيقي الـذي يدعى الاكتئاب. كنـت أقـول ذلك لمـن حولي، ولكنهـم كثيرًا مـا كانو يسـخرون. يظن الأغلـب بل الجميـع أن لا شيء يُدعـى مرض الآكتئـاب. وأن ما ذلك إلا هواجس. ولكن مع مرور الوقت تعسّرت حالتي كثيرًا. اسـتاء مني أهلي وأصدقائي. اسـتاء منـي الجميع، حتى وجدت نفـسي آتٍ إلى هنا بقدمي؛ راغبًا بالشفاء من ذلك المرض.

منـذ طفولتي وأنا بالفعل معزول في ذلك البيت الذي لطالما سـعيتُ كثيرًا للهروب منه. لم أتقبّله إطلاقًا. أمي التي لا تهتم بشيء سوى المناظر. تسـعى دائمًا إلى إظهار حياتنا على أنها حياة أسرية مترابطة وما إلى ذلك. ويـكاد بيتنا من الأسـاس أن ينهار من عدم متانة تلـك الروابط. كانت تمنعني أمي من الخروج من البيت، واللعب مع أصدقائي. تجعلني دائمًا مـع تلك ما تدعـى «مربية الأطفال». حتى أنها لا تأتي وتطمئن علي وما إلى ذلـك. لكنها فقط كانت تدّعي دائمًا أمام صديقاتها أنها هي من تقوم بمراعاتي وتربيتي والاهتمام بي. يا له من هُراء!.

كـبرتُ قليـلًا حتـى وجـب عـلي الذهـاب إلى المدرسـة.. حسـنًا لم أُمانـع أبـدًا أن يصطحبني والدي إلى المدرسـة.. ولكن مـع مرور الأيام والسنوات كدت أختنق من تلك العادة التي تقيّدني دائمًا.

أبي كان مـن هـؤلاء الأشـخاص الذيـن تربّـوا عـلى تلـك العادات والتقاليـد العظيمة. كان شـديدًا جـدًا. ملتزمًا بكل تلـك العادات التي سـمّيتها بنفسي عاهات. كثيرًا ما كان يمنعني من أشـياء بسـيطة بحجّة العـادات والتقاليـد. أو كعادة كل أب يسرُد قصـة حياته، وأنه كان من البيـت إلى المدرسـة والعكـس. وأنـه كان ينام مبكـرًا ويسـتيقظ مبكرًا ويـدرُس عـلى أضواء الشـموع. وذلك السـيناريو المتكرر الـذي لطالما يعيد تكراره عليّ.

كان التحكـم بي منذ صغري من قبل والداي قد سَـلَب مني حرّيتي وشـخصيتي. نعـم كنـتُ ذلـك الولـد الضعيـف أمـام والـده عديم الشـخصية. وكنتُ أيضًا ذلك الفتى حبيب والدته. لم آخُذ قرارًا واحدًا في حياتي حتى انهيت المرحلة المدرسية، و ذهبت إلى الجامعة. ذلك العالم المختلف تمامًا عن المدرسة. دخولي للجامعة كان مسبقًا بتخطيط عائلي كبـير. نعم بالطبع أبي يريدني أنأكـون طبيبًا، وذلك التفكير الذي يدّعي أن جامعات القمة هي الأفضل على الإطلاق.

تخرّجتُ من الجامعة، وتقدّمتُ على طلب وظيفة، وبالطبع تم قبولي لوسـائط أمي ومعارفهـا. بالطبع تعرّفـت على العاملين في المستشـفى، وكان يحتم علي التعامل معهم. كنت سعيدًا لأول مرة..

وقعـت في حبّ ممرضـة. وأردت أن اتخذ خطـوة في ذلك. لذا قمتُ بمواجهة والداي. أمي التي رفضت بشـكل تام وأنها ليسـت من عائلة كبـيرة، وأبي الـذي عاتبنـي على تركي لفتيـات العائلة واختيـاري لفتاة مـن الشـارع. كل ذلك كان صعبًا بالنسـبة لي، ولكن أنـا اتخذت القرار وحاولت كثـيرًا حتى وافقوا. بدأنا في ذلك القرار. أتممنا الزواج بعدها بثلاثِ شـهور. برغم موافقتهم وشعوري بأن الأمور انحلت، وجدت أيضًا مشاكل أكبر.

حاولـت زوجتـي أن تخبـئ عني أي شيء يحـدث من قِبـل والداي. ولكننـي وجدتها في يـوم منهارة أمامي وتبكي بشـكلٍ هسـتيري، حتى شعرت وكأنما قلبي ينزفُ دمًا. قالت لي ما حدث لها منذ أول يوم جاءت فيـه إلى المنزل. إهانات أمي الكثيرة على مسـتواها وعائلتها، بالرغم أنها كانت ليسـت بفقيرة بل كانت من الطبقة المتوسطة، وأبي الذي يعاملها بقسـوة، وكأنما الفتيات فقط خلقن للجلوس بالبيت، والقيام بالأعمال المنزلية وتربية الأبناء. لم أستوعب ما حدث، فقط عانقتها حتى تهدأ..

بعد ذلك قمت بمواجهة والداي. كانت المواجهة كالحرب بالفعل. حتى أنهم تعمّدوا استفزازي بذلك الكلام الذي لا معنى له، حتى قال لي أبي: «تركـت فتيات العائلة وتزوجـت هذه؟ ولكن لما لم تنجب حتى الآن؟ أم إنهـا فعـلا من فتيات الشـارع؟» كانت تلـك الجملة تغرس في قلبي أشواكًا. حتى أنني لم أستطع الرد عليه لإنه أبي.

بعـد فترة جاء ذلك الخبر. حسـنًا إنها لا تنجـب. لم أعلم كيف أخبرِ والداي بذلك؟ ولكن كان يجب أن أفعل ذلك. أخبرتهم بالفعل. كانت ردة أفعالهم كالعادة.

مر الوقت حتى تعرضتُ للكثيرمن الضغط منهم، أن أطلقها، أو أن أتزوج من هي تليق بي وبمستواي وتلك التفاهات.

تلك التفاهات التي كان غرضها أن أبتعد عنها فقط. ولكن قدرة ربي كانت أعظم. لم يمر الكثير حتى توفيت في حادثة، نجى الجميع سـواها. و كأنما الله اختارها حتى يريحها من تعب هذه الحياة وقسوة سكانها.

وجـدتُ أنني بلا روح منذ ذلك الحين. أخذت معها روحين. كنتُ أحبها كثيرًا، وسعيت كثيرًا حتى أتزوجها وأسعدها، ولكنها اختيرت لتذهب لرب العباد.

تدهـورت حالتـي النفسـية و البدنيـة.. لا طعام لا نـوم .. كل شيء كان صعبًـا عـلي منذ وفاتها. حتى عملي لم أسـتطع الذهـاب إليه.. لإنه مـكان لقاءنـا ومعرفتي بها. كنـت أتعرض لكثير مـن الضغوطات من قبل رئيسي في العمل.. سـيتم الخصم من المرتب.. سيتم فصلي ولكنني ذهبت في يومٍ وأخذت إجازة وتركت كل شيء..

في زحمـة تلـك المشـاكل.. كنـت اشـتكي لصديقي «عمـر»، صديق الجامعـة الوحيد. كنت أحكـي له دائمًا ما يحدث لي حتى أنني حدّثته عن طفولتي البائسـة.. كنـت كثيرًا أخبره بأنني أشـعر باكتئاب، ولكنه كان يطمئنني أنه حزنٌ فقط وسوف يذهب. ولكن في يوم من الأيام لم أحتمل وذهبت أنا بنفسي إلى المشفى..انتهى زواجنا بالفعل بعد سنة ونصف.

سنة ونصف مليئة بالتحديات. سنة ونصف مليئة بالحزن..

وها أنا أقترب من سن السادسة والعشرين..

خمس وعشرون سنة مليئة بالحزن وبالتحكم وبالظلم وكل شيء.. لذا قررت الذهاب للمشفى والابتعاد عن كل ذلك، ولا أمانع إن بقيت بها حتى أتوفى..

كنتُ أقرأ ذلك وأنا في نفس تلك الغرفة. ولكن قد تغير الكثير، فلقد تحسّنت وتجاوزت كل شيء.

لا أُنكر أن قرائتي لتلك الصفحات من مذكرتي أعاد لي ذكرياتي المؤلمة، وأشعرني بتجدد انغراس تلك الأشواك في قلبي، ولكن حتماً انتهى كل شيء. لملمت أغراضي وأنا أستعد لمغادرة هذا المكان.. لأن اليوم موعد مغادرتي من المشفى بعد أن أصبحت على أحسن حال..

أغلقت حقيبتي ووقفت، وأنا أتأمل الغرفة.. تلك الغرفة الصغيرة التي شهدت على الكثير من الحزن و المعاناة، شهدت على ٤ سنوات من عمري.. لا أودّ مغادرتها بتاتًا لإنني اعتدت على وجودي هنا.. ولكن يجب الرحيل؛ لأحارب مع تلك الحياة من جديد و بقلبٍ أقوى.. أخذت حقيبتي وتوجهت إلى الباب الرئيسي للمشفى وأتممت جميع الإجراءات..

وقفت أنظر للشارع وأنا متردد جدًا، ولكن يجب أن أخطو وأتجاوز تلك المرحلة.

نظرت النظرة الأخيرة للمشفى وقلت: «وداعًا يا من سلبت مني الحزن يا من علمتني كثيرًا.. وداعًا يا عالمي الصغير..» ثم وجّهت عيني للشارع وقلت بداخلي: مرحبًا يا حُزني الأكبر.. يامن ستعلّمني وتلقنني الكثير.. مرحبًا يا عالمي الكبير. **نُوران صَبرة**